الحملة الفرنسية فى الخطاب التاريخى الفرنسى
(نموذج الكتب المدرسية للمرحلة الابتدائية)[1]
(1945 -1969)

أ.د. فريدة جاد الحق

يستطيع الدارس للخطاب التاريخى أن يرصد مضمون هذا الخطاب من خلال ثلاثة نماذج رئيسة: أولها الخطاب المدرسى المتمثل فى كتب التاريخ المقررة على تلاميذ المدارس، وثانيها الخطاب التعميمى،حيث تقدم المادة التاريخية المبسطة لجمهور واسع من المتلقين غير المتخصصين، وثالثها خطاب البحث العلمى،وهو الخطاب الموجه للمتخصصين فى مجال التاريخ.

ويحظى النوع الأول من الخطاب بأهمية كبيرة نظرا لأنه يتوجه إلى أكبر عدد من المتلقين، وهم تلاميذ المدارس، وخاصة مع نظام التعليم الإلزامى،والذى تم إقراره فى فرنسا منذ عام 1882، بالنسبة للمرحلة الابتدائية. ويكتسب كتاب التاريخ المدرسى فى هذه المرحلة أهمية خاصة؛ لأنه يحتوى على أول خطاب رسمى موجه إلى "مواطنى المستقبل". ويتكون المتلقون فى هذه الحالة من غالبية أفراد المجتمع الفرنسى.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن تحليل المادة التاريخية بشكل عام يظهر مشكلات الزمن الذى تمت كتابة هذه المادة فيه أكثر من مشكلات الزمن الماضى محل الدراسة. وهكذا نجد أن دراسة فترة ما، مثل الفترة ما بين 1945 و 1969، تسمح لنا بدراسة

فرنسا فى علاقاتها مع الآخرين فى هذه الفترة. ويبرز هنا تساؤل هام: لماذا تم اختيار هذه الفترة بالتحديد؟ فى الواقع، هناك أكثر من سبب وراء هذا الاختيار؛ فمن الناحية السياسية والتاريخية، يشير عام 1945 إلى نهاية الحرب العالمية الثانية، هذه الحرب التى هزت بشدة المجتمع الفرنسى. وقد حدث تغيير جذرى فيما يخص القوى الموجودة على الساحة الدولية، فقد حلت الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى محل القوتين العظميين: إنجلترا وفرنسا. وبشكل موازٍ لهذا التغيير، بدأت عملية إزالة أو تصفية الاستعمار، والتى امتدت على مدى الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين. إن السؤال المطروح هنا: هل تم تعديل الطريقة التى قدم بها المؤلفون الفرنسيون تاريخ بلدهم فى كتب التاريخ المدرسية، بحيث يواكب هذا التعديل التغييرات على أرض الواقع؟

ونرجع إلى الأسباب الأخرى المتعلقة باختيار فترة 1945–1969، فنجد أن هذين التاريخين يتعلقان بإدخال تعديلات هامة فى مقررات الكتب المدرسية، وبصورة خاصة كتب التاريخ؛ فقد تم إجراء تغيير على أثر انتهاء الحرب فى 1945 وإعلان قيام الجمهورية الرابعة فى فرنسا، ثم تم إجراء عدة تعديلات جوهرية فى الفترة التالية والتى امتدت إلى نحو ربع قرن من الزمان، وكان أهم تعديل هو الذى حدث عام 1969 بعدما تعرض المجتمع الفرنسى لهزة أخرى عميقة: فمع أحداث مايو – يونيو 1968، تأثرت بشدة كل جوانب الحياة فى فرنسا – السياسية منها والاجتماعية والثقافية. وقد تمت إعادة النظر فى القيم التقليدية للمجتمع الفرنسى. وعلى مستوى تدريس التاريخ فى المدارس الابتدائية، حلت مادة disciplines d'éveil [2] محل مادتى التاريخ والجغرافيا، اللتين ظلتا تدرسان منذ عهد الجمهورية الثالثة (1875–1940) بشكل شبه ثابت. ومن ضمن الأسباب الأخرى الهامة أن فترة 1945–1969 تشكل أيضا على المستوى الدولى مرحلة هامة للصراع العربى – الإسرائيلى،مما يمكن أن يكون له أثر على طريقة تقديم الكتب المدرسية للشرق العربى بصورة عامة، وللحملة الفرنسية بصورة خاصة. وأخيرا فإن فترة الأربعة والعشرين عاما التى تمتد من 1945 إلى 1969 تشمل جيلا من الفرنسيين، وسنرى إذا كان قد تم

تقديم نفس المعرفة لأبناء الجيل الواحد أم تم تغييرها على ضوء الظرف التاريخى الذى مرت به فرنسا ذاتها؟

وبعد هذه المقدمة التى وجدنا أنها مهمة بالنسبة لفهم خصوصية المادة التاريخية محل الدراسة، ينبغى الإشارة إلى نقطة هامة للغاية تتعلق بالنظام التعليمى فى فرنسا، وهى الخاصة بتعدد وتنوع الكتاب المدرسى،وفقا لتعدد دور النشر: ففى فرنسا، هناك أكثر من كتاب مدرسى بالنسبة للمادة الواحدة وبالنسبة للصف الواحد[3]. وفى إطار دراستنا الحالية عن الحملة الفرنسية على مصر، يصبح التساؤل: هل ساهم هذا العامل فى إنتاج صور متعددة للحملة؟ أم أن الصورة كانت واحدة ومشتركة ومتماثلة؟ إن هذا التساؤل إنما يمثل لب الإشكالية التى تهتم الدراسة بمعالجتها من خلال تحليل مضمون خطاب كتب التاريخ المدرسية الفرنسية.

أول ملاحظة يجب الإشارة إليها هى أن كتب التاريخ المدرسية فى فرنسا تهتم – خاصة فى المرحلة الابتدائية – بالتركيز على أهم الأحداث التاريخية التى يريد "المرسل" أن ترسخ فى أذهان المتلقين؛ أى الأطفال الفرنسيين، وذلك عند دراسة هؤلاء لمادة التاريخ.

وفى حين يبرز حدث الحملة الفرنسية على مصر من بين الأحداث المتعلقة بتاريخ فرنسا كحدث كتب عنه المؤرخون – فرنسيون كانوا أم غير فرنسيين – الكثير، مما يظهر التحليل الكمى للكتب محل الدراسة حقيقة هامة، ألا وهى أن هذا الحدث لم ينل اهتماما كبيرا من قبل مؤلفى هذه الكتب.

فالجداول التاريخية – والتى تتضمن أهم الأحداث التاريخية – نادرا ما تتضمن تاريخ 1798، الذى يشير إلى بداية الاحتلال الفرنسى لمصر، والأهم هو أن هذه الجداول لا تتضمن على الإطلاق تاريخ 1801، وهو الذى يشير إلى هزيمة الفرنسيين وجلائهم عن مصر.

أما بالنسبة للسياق التاريخى الذى يتم فيه تقديم الحدث، فعادة ما يختار مرسل هذا الخطاب المدرسى بين موضوعين: تاريخ الديركتوار Directoire [4]، أو تاريخ

الجنرال بونابرت. وفى كلتا الحالتين يتم استعراض الحدث فى فقرة واحدة أو فقرتين على الأكثر، مع عنوان فرعى هو "الحملة الفرنسية" أو "الجنرال بونابرت".

وتوضح المقارنة بين كتب المستويات الثلاثة (CEP, CM, CE) [5] أنه كلما انتقل التلميذ إلى مستوى أعلى، ازداد الاهتمام بالحدث محل الدراسة، فالمستوى الأولىّ هو أقل المستويات إشارة إلى هذا الحدث، ويعد هذا الوضع مفهوما إذا ما تذكرنا أن كتب هذا المستوى لا تهتم إلا بالأحداث التى تعتبر الأكثر أهمية فى تاريخ فرنسا. نجد إذًا أن الحملة الفرنسية لا تصنف بين تلك الأحداث.

ونقدم النص التالى كمثال لمضمون كتب المستوى الأولىّ، وقد تمت إشارة سريعة للغاية إلى الحملة فى سياق تقديم تاريخ الجنرال بونابرت، والذى انتصر فى حملته على إيطاليا – هذه الحملة التى تأخذ حجما من الاهتمام أكبر بكثير من الحملة على مصر:

"لقد قاد بونابرت حملة إلى مصر، بهدف قض مضجع إنجلترا بالنسبة لمستعمراتها بالهند"[6].

وأول ملحوظة فى هذا الصدد أن الصراع بين فرنسا وإنجلترا يقدم – دون مواربة– كسبب رئيسى لهذه الحملة على مصر، وهذا ما سنجده مذكورا فى جميع الكتب. وفى بعض الأحيان تتم الإشارة إلى أن إنجلترا كانت تشكل مصدرا للتهديد بالنسبة لفرنسا، بما يوحى أن فرنسا كانت فى موقع الدفاع عن النفس عند قيامها بالحملة، وذلك يعزز بالقطع مشروعية هذه الحملة. وفى أحيان قليلة، يذكر المرسل المتلقى بأن إنجلترا كانت قد قامت عام 1763 بالاستيلاء على المستعمرات الفرنسية فى الهند، على أثر هزيمة فرنسا أمامها. ويتحدث النص المدرسى عن الحملة الفرنسية على مصر على أنها خطوة على طريق استعادة الممتلكات الفرنسية، مما يضفى أيضا شرعية للحدث. وهذه التفاصيل وغيرها، نجدها أكثر فى كتب المستويين المتوسط والعالى،سواء فيما يخص بالوضع الداخلى فى فرنسا، أو فيما يخص الحملة نفسها.

ولكن ماذا تختار الكتب فعلا أن ترويه عن الحملة؟

فى الواقع، تقدم الكتب حقيقة الموقف السياسى بدون اللجوء إلى استخدام أى من التبريرات المعروفة مثل: إنقاذ سكان مصر من استبداد المماليك، أو إنقاذ التجار الفرنسيين من الظلم، أو نشر مبادئ الثورة الفرنسية فى مصر. فكل هذه الحجج لا تظهر على الإطلاق فى كتب التاريخ للمرحلة الابتدائية.

ومن خلال سرد الحدث، يتم دائما إبراز معركة "الأهرام" الشهيرة، والتى انتصر فيها الفرنسيون. وهذه المعركة قد حدثت بالفعل كما نعلم، ولكن هل يتم هنا رواية الحقيقة التاريخية، أم يقدم من خلال السرد جزء من "المتخيل" يتم مزجه "بالحقيقى" ؟

عند تحليل الخطاب، يتضح لنا أنه يتم إبراز المعركة التى انتصر فيها بونابرت، وذلك من خلال عنصرين:

1- التسمية الفرنسية للحدث وهو "معركة الأهرام"، ففى حين أن هذه المعركة معروفة تاريخيا تحت مسمى "معركة إمبابة" وذلك وفقا للمكان الذى دارت فيه تلك المعركة، ولكن الفرنسيين اختاروا هذه التسمية لإضفاء المزيد من المجد لهذا الانتصار. ويبدو الأمر وكأن الفرنسيين أرادوا "استعارة" المجد الماضى للحضارة الفرعونية القديمة وإضافته لمجدهم الحاضر، (بالنسبة لتلك الفترة).

2- تهتم أغلب الكتب المحللة بذكر المقولة الشهيرة التى نسبت إلى بونابرت فى هذه المناسبة، عندما أراد حث جيشه على قتال الأعداء: "أيها الجنود، إن أربعين قرنا لتنظر إليكم، من أعلى هذه الأهرام"[7].

والجدير بالذكر، أن بعض هذه الكتب لا تكتفى بذكر هذه الكلمات، بل تقدم أيضا رسما إيضاحيا مصاحبا للنص، وتكون وظيفة هذا الرسم التأكيد بصورة أكثر فاعلية على مجد الجيش الفرنسى ومجد بونابرت نفسه.

ويحتل الجنرال بونابرت مكانة هامة فى هذه الكتب فيتم توجيه الأنظار إليه، ولا ننسى أنه سيتولى مقاليد الحكم فى فرنسا عام 1799، وتظهر الأسطورة التى تم خلقها حول شخصية بونابرت من خلال نصوص كالنص التالى:

"وفى عام 1798، كان بونابرت ملازم أول وهو فى عامه العشرين. وقد تم تعيينه قائدا للجيش الذى كان يحارب فى إيطاليا، وكان عمره حينئذٍ 27 عاما. وقد تمكن من دحر خمسة جيوش نمساوية الواحد تلو الآخر. ثم ذهب إلى مصر ليقاتل. وعند عودته إلى فرنسا، أصبح قائدا للفرنسيين، ولم يكن قد بلغ حينئذٍ إلا ثلاثين عاما"[8].

أما بالنسبة للحملة الفرنسية، فنرى بوضوح كيف أن الخطاب يقدم جملا مقتضبة فى هذا الشأن. وفى حقيقة الأمر، نجد أن متلقى هذا الخطاب – أى التلميذ – لا يعرف هكذا إلا القليل جدا عن الحملة الفرنسية. والجدير بالذكر أيضا أن طريقة تقديم الأمور فى هذا المقال توحى أن بونابرت قد انتصر فى مصر، بما أن الفترة التى سبقت الحملة كانت مليئة بالانتصارات (خلال الحملة على إيطاليا)، وكذلك بالنسبة للفترة التى أعقبت الوجود الفرنسى فى مصر (تولى بونابرت زمام السلطة فى فرنسا). وهكذا تعتبر الهزيمة الفرنسية فى مصر عام 1801 ضمن المسكوت عنه ولا يتم الحديث عنها.

وفى بعض الكتب، يتم الحديث عن تدمير الأسطول الفرنسى على يد الإنجليز فى "أبو قير": "وبسبب هذه الكارثة (تدمير الأسطول)، أصبح جيشنا" بمصر معزولا عن فرنسا. وتشكل حينئذٍ تحالف أوروبى جديد ضدنا" (...). فقام بونابرت، والذى كان يتابع بكثير من الاهتمام ما يجرى على الساحة الفرنسية، بترك جيشه فى مصر، وعاد وحده إلى فرنسا"[9].

ماذا سيكون إذًا مصير جيش بونابرت فى مصر؟ نلاحظ أنه بشكل عام، تلتزم الكتب المدرسية الصمت حيال هذه النقطة، وتهتم فقط بتولى بونابرت مقاليد الحكم فى فرنسا. ويشير كتاب واحد فقط، وباقتضاب، إلى استسلام الجيش الفرنسى،ويقدم هذه الواقعة كحدث دعت إليه الضرورة:

"ونجح بونابرت فى العودة إلى فرنسا، ولكن جيشنا اضطر للاستسلام"[10].

أما بالنسبة لهزيمة أخرى سابقة على هزيمة 1801، وهى التى مُنِّى بها الجيش

الفرنسى فى عكا، فنجد أن كتابين فقط من مجموع الكتب قاما بالإشارة إليها: الأول يربط بين هذه الهزيمة ورجوع بونابرت بعد ذلك إلى فرنسا نظرا لأنه اضطر أن "يصرف النظر عن مقاومة الإنجليز وعرقلتهم فى الهند"[11]، والكتاب الثانى مؤلفه يدعى لافيس LAVISSE[12]، وهو صاحب أشهر كتاب مدرسى فرنسى،وقد عزز النص بتقديم اللوحة الشهيرة للرسام الفرنسى جرو GROS، والتى تحمل عنوان: "المصابون بالطاعون فى يافا". ونرى فى هذه اللوحة الجنرال بونابرت وهو يلمس بشجاعة يحسد عليها، مريضا بالطاعون، فى مشهد يذكرنا بالسيد المسيح وبقدرته على شفاء المرضى. وينهى المؤلف نصه المفسر للوحة بتقييم نقدى يقول فيه: "هذه لوحة دعائية". وهذه أول مرة – بل المرة الوحيدة – التى نقرأ فيها هذا النوع من التقييم، والذى يوضح إحدى وظائف الصور والرسوم. ولكى نفهم جيدا هذا التقييم، لا بد أن نذكر أن صاحبه لافيس LAVISSE كان ينتمى إلى التيار الجمهوري؛ فكان تبعا لانتماءاته السياسية، يقف موقف المعارض للسياسة التى اتبعها بونابرت؛ مما أدى إلى وضع نهاية لنظام الجمهورية الأولى فى فرنسا، وأرسى بونابرت مكانه فى النظام الإمبراطورى فى فرنسا، وذلك فى أوائل القرن التاسع عشر.

وإذا كانت بعض أسباب هزيمة الفرنسيين قد تم ذكرها – مثل تدمير الأسطول الفرنسى،أو هزيمة بونابرت فى عكا – فإن الكتب المدرسية لا تذكر على الإطلاق أسباباً أخرى لا تقل أهمية عن السابق ذكرها؛ وهى المتعلقة بالمقاومة المصرية ضد المحتل الفرنسى. وذلك يمثل العنصر الثانى فى المسكوت عنه بالنسبة لحدث الحملة الفرنسية على مصر، فلا أثر للثورات التى قام بها المصريون ضد الاحتلال الأجنبى،بل الأدهى من ذلك أنه لا يتم ذكر المصريين فى أى من الكتب المدرسية محل الدراسة – ويبدو الأمر كما لو كانوا غير موجودين أصلا، وهكذا، وبمنتهى البساطة، يتم محوهم من على الساحة. فماذا إذًا عن صراع بونابرت فى مصر؟ وفقا للخطاب، فإن الصراع هو بالأساس مع إنجلترا من ناحية، ومع الأتراك[13]، أو

المماليك وهم "جنود السلطان"[14] من ناحية أخرى. ولكن يظل الغريم الإنجليزى هو الذى يحتل المكانة الكبرى على الساحة.

وإذا كان الكتاب المدرسى قد تجاهل الثورات المصرية ضد المحتلين الفرنسيين؛ حيث لم ترد أى إشارة إلى المصريين، فإن الثورات قد تم محوها من السرد التاريخى. والجدير بالذكر أننا وجدنا إشارة واحدة للمصريين فى كتاب مدرسى لا ينتمى إلى الحقبة محل الدراسة، ولكن إلى عام 1938؛ ففى كتاب **تاريخ فرنسا** لمؤلفيه GUILLEMAIN et LE STER نجد جملة يتم فيها الحديث عن المصريين، وذلك فى سياق محدد، بعد أن يتم سرد معركة الأهرام، والتى انتصر فيها الفرنسيون على المماليك – يخلص الكتاب إلى القول بأنه: "ومنذ ذلك الحين، أعجب المصريون بشجاعة الجنود الفرنسيين، كما كانوا قد أعجبوا من قبل بشجاعة الصليبيين وقت حملة القديس لويس إلى مصر"[15].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذا الكتاب كان ضمن سلسلة من الكتب المدرسية يطلق عليها "الكتب الكلاسيكية الكاثوليكية"، فذلك يفسر سبب مقارنة الحملة الفرنسية على مصر عام 1798 بالحملة الصليبية عام 1250.

وتبقى ملحوظة هامة تتصل بهذا المثال المنفرد فى ذكر المصريين، هو أن المصريين هنا حاضرون وغائبون فى نفس الوقت – فهم يبدون كما لو كانوا يحتلون مقاعد المتفرجين، يعجبون بشجاعة الفاعلين الإيجابيين (الفرنسيين) – ويبدون وكأن لا علاقة لهم بالفاعلين السلبيين فى هذا المشهد، ألا وهم المماليك.

وكما لم يتم ذكر المصريين فى المادة محل الدراسة، فلا تتم أيضا الإشارة إلى ما قام به الفرنسيون من أفعال قمعية ومن أعمال عنف تجاه المصريين خلال فترة احتلالهم لمصر، والتى دامت ثلاث سنوات. فالفاعل الفرنسى دائما ما يقوم بأفعال إيجابية – أو على الأقل، أفعال لها مشروعية واضحة؛ لأنه يرد بها مثلا على استفزاز أو تهديد معين، إلخ.

وفى إطار سرد حدث الحملة الفرنسية، يتحرك الفاعل الفرنسى فى مساحة تسمى "مصر"، ويذكر كتابان فقط أنها جزء من الإمبراطورية التركية. ولكن تظهر

مصر أساسا كمكان للمواجهة الفرنسية – الإنجليزية، وهو المعبر المفضل للتجارة البريطانية فى الهند. وهو أيضا المكان الذى شهد أحد الفصول الأكثر مجدا فى تاريخ الجنرال بونابرت، ألا وهو معركة الأهرام. مصر هى أيضا أرض الحضارة الفرعونية القديمة، ولا يتم الحديث عن هذه الحضارة إلا فى كتب المستوى الأعلى (CEP) التى تبدأ سردها للتاريخ بصفحات مكرسة لهذه الحضارة. وهم يسارعون فى الحديث عن الدور العلمى للحملة الفرنسية، وذلك منذ هذه الصفحات الأولى، فبفضل أعمال العلماء الذين صاحبوا الجيش الفرنسى إلى مصر، تم الكشف عن العديد من أسرار الحضارة القديمة، ويتم الحديث فى هذا الصدد عن شامبليون، ويعد اسم هذا العالم ضمن الشخصيات الفرنسية الشهيرة. ولكننا لا نجد إشارة – إلا فى حالات نادرة للغاية – لهؤلاء العلماء فى الدرس المخصص للحملة الفرنسية. فسرد حدث الحملة يركز – كما رأينا – على الجانبين السياسى والعسكرى.

ونصل بعد تحليل نصوص الكتب، إلى دور مرفقات النصوص من عناوين وعناوين فرعية، وجداول تاريخية، ورسوم، وخرائط، ومفاتيح الخرائط، وملخصات، وأسئلة وتدريبات، ووثائق – إن وجدت –. ونحاول الإجابة على السؤال التالى: هل قامت مرفقات النص بالتأكيد على الصورة التى يقدمها النص نفسه عن الحملة؟ أم قامت بتقديم صورة مختلفة؟. فى الواقع، نجد أن دور هذه المرفقات بالنسبة لهذا الحدث، بالأخص، محدودة للغاية؛ فالأسئلة مثلا تظل متعلقة بأسباب الحملة، أما الملخص، فيعيد بصورة عامة مضمون النص، ولكن مع إبراز الجوانب الإيجابية بصورة خاصة. فيصل الأمر أو بأحد الكتب إلى درجة أن يتم الحديث فقط عن الانتصارات فى الملخص، فى حين أن النص كان قد قدم واقعة تدمير الأسطول الفرنسى:

"أصبح الجنرال بونابرت شهيرا بفضل انتصاراته فى إيطاليا وفى مصر"[16]. وهكذا يصبح ما يجب على التلميذ أن تعيه ذاكرته، وتحتفظ – بالأخص – بصورة بونابرت التى تتحول شيئا فشيئا إلى أسطورة. ويصبح من خلال خطاب كتاب التاريخ المدرسى،أحد أهم رجال فرنسا العظام على مر التاريخ.

هذا عن أسطورة بونابرت. فماذا عن أسطورة الحملة الفرنسية نفسها، والتى تناقلها المؤرخون الفرنسيون خلال القرن التاسع عشر؟. فى الواقع، لا تظهر هذه الأسطورة على الإطلاق فى الخطاب محل الدراسة – فحجم "الواقعى" و"الحقيقى" يفوق حجم "المتخيل". ولكننا سجلنا حالة واحدة لتشويه تاريخى واضح ، حيث ينسب إلى بونابرت فضل بناء الدولة الحديثة فى مصر؛ ويتضح ذلك من خلال المثال التالى:

"قام بونابرت بتنظيم شئون مصر كما لو كان يريد البقاء بها، وأمر بإقامة عدة مشروعات كبرى مكنت هذا البلد من أن يصبح بعد ذلك دولة قوية وغنية"[17] ولا يحدد مرسل الخطاب تلك المشروعات الكبرى أو عن أى فترة لاحقة يتحدث. وتسهم صيغة الجملة المستخدمة فى التأكيد على أن ما يقال مطابق للواقع. وتأتى هذه الجملة بعد إشارة سريعة إلى هزيمة الجيش الفرنسى بميناء "أبو قير". ولكن يبقى هذا المثال هو الوحيد (الموجود بالكتب المحللة) الذى يمجد الأيادى البيضاء لبونابرت فى مصر.

وهكذا نرى أن الكتب المدرسية لا تعطى اهتماما يذكر لحدث الحملة الفرنسية؛ فهى لا تخصص له درسا قائما بذاته. صحيح أن الكتب تقدم حقيقة الموقف ممزوجا بشيء من "الخيالى" (تمجيد بونابرت) وبشيء من المسكوت عنه (غياب المصريين عن المشهد، عدم الإشارة إلى هزيمة 1801، إلخ).... أما بالنسبة للأسطورة المتصلة بالجوانب الإيجابية للحملة الفرنسية على مصر، فنجدها فى كتب المرحلة الثانوية، الأمر الذى يثير الدهشة: لأنه كان من المتوقع أن يكون خطاب هذه المرحلة أقرب إلى تحرى الدقة وتقديم الحقيقة التاريخية، ولكننا نكتشف أن "الخيالى" يتخذ مكانا أكبر بكثير من مكانه فى المرحلة الابتدائية، مبتعدا بذلك عن الموضوعية المطلوبة فى كتابة التاريخ: ففى كتب المرحلة الثانوية، نجد أن الخطاب يقوم بتمجيد بونابرت من ناحية، وتمجيد الحملة الفرنسية من جانب آخر. ولكن هذه الملحوظة تخرج عن نطاق تقديم صورة الحملة فى كتب المرحلة الابتدائية، وتحتاج إلى دراسة أخرى.

وإذا أردنا أن تتضح صورة الحملة الفرنسية أكثر، فإن من الأهمية بمكان مقارنة طريقة تقديم هذا الحدث بطريقة تقديم حدث آخر ينتمى إلى تاريخ الاستعمار الفرنسى - ألا وهو احتلال الجزائر. وكما نعلم، فإن الفرنسيين قاموا باحتلال الجزائر عام 1830 – أى بعد مرور نحو 29 عاما على انتهاء الحملة الفرنسية على مصر. واستمر المستعمر الفرنسى فى التوغل فى الأراضى الجزائرية على مدى سنوات طويلة حتى نجح فى استعمار الجزائر بأكملها واستقر فى هذا البلد الذى أصبح أهم مستعمرة فرنسية فى القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين.

والتساؤل الذى يهمنا الإجابة عليه هنا هو: هل تم تقديم هذا الحدث على غرار تقديم حدث الحملة الفرنسية؟ إن تحليل كتب التاريخ المدرسية للمرحلة الابتدائية يبرز لنا عدة حقائق، نذكر منها النقاط الرئيسة التالية:

- تقدم غالبية الكتب محل الدراسة موضوع استعمار الجزائر، وتفرد له صفحات متعددة (على المستوى الكمى)، بل وفى كثير من الأحيان، يكون هناك فصل كامل مخصص لهذا الموضوع. وفى بعض الأحيان، يتم تقديم الموضوع على مدى فصلين: أولهما يختص بمسألة استعمار الجزائر، وثانيهما يقدم النموذج الجزائرى كمثال إيجابى للمستعمرات الفرنسية. وهكذا يتضح أحد أوجه الاختلاف مع حدث الحملة الفرنسية، والذى كان يتم الإشارة إليه – كما رأينا – بصورة مختصرة جدا.

- نجد أن عنوان الدرس يحمل مفردات ذات دلالة إيجابية، فيتكرر استخدام تعبير "فتح الجزائر" بدلا من "استعمار الجزائر"[18] (مع العلم بأن الخطاب الفرنسى كان يستخدم كلمة "استعمار" فى هذه الفترة بمعنى إعمار الأرض واستصلاحها. ولكن تظل كلمة "فتح" لها وقع إيجابى أكبر). ونجد فى كثير من الكتب أيضا العنوان التالى: "الإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية" . وفى بعض الأحيان يركز العنوان على: "مجد" أو "عظمة" هذه الإمبراطورية. وكما نرى من خلال هذه النماذج، فإن كل المفردات المختارة تقدم لتلميذ المرحلة الابتدائية صورة إيجابية لهذا الحدث، وذلك منذ لحظة قراءة عنوان الدرس.

- تتضمن القوائم التاريخية تاريخ 1830 فى حين أنها لا تشير إطلاقا إلى تاريخيى 1954 (بداية حرب الجزائر) و1962 (نهاية الحرب وجلاء الفرنسيين عن الجزائر). وهكذا نرى أنه يتم بمنتهى البساطة "التخلص" من التواريخ التى تشير إلى أحداث تتعلق بجوانب سلبية للفاعل الفرنسى (الهزيمة،..).

- والجدير بالذكر أن "المسكوت عنه" هو حرب الجزائر وكذلك النتيجة التى انتهت إليها هذه الحرب، ألا وهى هزيمة الفرنسيين عام 1962 واضطرارهم للتخلى عن هذه المستعمرة. فيتم التعامل مع الحرب ثم مع الاستقلال على أنهما من الموضوعات التابو Tabou، وذلك فى الفترة اللاحقة لعام 1962. وهنا تجدر الإشارة إلى أن الخطاب التاريخى بنماذجه الثلاثة (المدرسى،والتعميمى،وخطاب البحث العلمى) قد خلا لسنوات طويلة من ذكر تلك الأحداث التى مثلت – وما زالت تمثل – جرحا غائرا فى الذاكرة الجماعية الفرنسية.

وإذا رجعنا إلى الكتب المدرسية المقررة بعد عام 1962، فسنجد أنها لجأت إلى أحد الحلين للتعامل مع موضوع استعمار الجزائر:

- إما أن تستمر فى سرد الأحداث وتقديم الموضوع كما لو كانت الجزائر ما زالت مستعمرة فرنسية.
- وإما أن يتحول موضوع استعمار الجزائر إلى موضوع تابو Tabou، وقد لاحظنا ذلك بصورة خاصة فى كتب المستوى الأولى (CE).

وبعد هذه الملاحظات الأولية، ماذا عن السياق التاريخى الذى تم تقديم حدث استعمار الجزائر من خلاله؟

إذا كان تقديم سياق الحملة الفرنسية تميز بأنه كان مطابقا للحقيقة التاريخية، فإن حدث استعمار الجزائر تم تقديمه فى سياق مختلف تماما. فالكتب تفرد مساحة واسعة لسرد واقعة سب (أو إهانة) حاكم الجزائر للقنصل الفرنسى،مما يعد إهانة لفرنسا، خاصة أن الحاكم يرفض الاعتذار عن موقفه، وبعد أن تصبر فرنسا عليه مدة طويلة، تضطر إلى إرسال الجيوش (!!) إلى مدينة الجزائر وتستولى عليها.

وتقدم الكتب أيضا مبررا آخر للاستعمار الفرنسى حين تؤكد أن السفن التجارية الفرنسية كانت تعانى لفترة طويلة من عمليات قرصنة من جانب سكان الجزائر مما اضطر (أيضا) فرنسا أن تسعى لمنع هذه الاعتداءات، وذلك عن طريق إرسال الجيوش. ونقدم هنا مثالا يحمل بعضا من الطرافة حيث يؤكد المؤلفين M. et S. CHAULANGES أن "القراصنة كانوا يهاجمون سفننا، وذلك منذ عدة قرون"[19]. فالفرنسيون أقدموا إذاً على خطوة الذهاب إلى الجزائر بعد طول صبر!

وفى إطار المقارنة التى تهمنا هنا مع حدث الحملة الفرنسية، نكتشف أن تقديم أسباب استعمار الجزائر ينطوى على مبررات لا تستند إطلاقا إلى الحقيقة التاريخية. وإذا يتم الحديث عن الصراع الفرنسى – الإنجليزى فى الحالة الأولى، لا تتم الإشارة إطلاقا إلى هذا الصراع فى الحالة الثانية.

ويؤكد الخطاب التاريخى المدرسى على "اضطرار" فرنسا و"واجب" فرنسا والذى يحتم عليها القيام بهذه الخطوة مما يضفى الشرعية الكاملة لهذا الاستعمار. ثم ينتقل الخطاب من تبرير الاستيلاء على مدينة الجزائر إلى تبرير استعمار الجزائر كله، حيث إن الفرنسيين يضطرون لذلك لسببين رئيسين، وفقا للخطاب:

أ) "اضطرارهم" للتصدى "لهجمات" بعض القبائل الجزائرية لهم، وتكون أصعب المعارك مع عبد القادر الجزائرى،لكنها تنتهى بأن يتحول هذا العدو، بعد هزيمته أمام الفرنسيين واستسلامه هو وقواته، إلى "صديق وفى لفرنسا". ولا يتوقف الخطاب إطلاقا لحظة واحدة لتفسير هذه النتيجة غير المنطقية. فالعدو قد تحول فجأة إلى "صديق وفى". "ولا تستخدم مطلقا أية مفردات أو تعبيرات من قبيل "مقاومة المحتل الأجنبى".

ب) المبرر الثانى الذى تقدمه الكتب هو الخاص "بالمهمة الحضارية لفرنسا" فى الجزائر. وتفرد الكتب فقرات طويلة للحديث عن إنجازات فرنسا فى الجزائر – وهى لا تعد ولا تحصى. ويتم التأكيد على الخير الذى عم البلاد وعاد على سكان البلد بفضل الوجود الفرنسى. ويؤكد الخطاب على الفاعل الفرنسى والذى لا يقدم

إلا على أفعال إيجابية للغاية لدرجة أنه يتم تقديم الفرنسيين على أنهم ضحوا بأنفسهم من أجل إنجاز هذه "المهمة الحضارية" النبيلة، وذلك بالرغم من قسوة الحياة فى الجزائر (الصحراء الجرداء، الطقس القاسى،القبائل الهمجية، إلخ...).

ولا يمكن فى إطار المقارنة السريعة بين حدثى الحملة الفرنسية واستعمار الجزائر إلا أن نشير إلى وجه هام من أوجه التشابه – وهى قليلة فى واقع الأمر – ويتمثل هذا الوجه فى أنه لا يتم الإشارة إلى الجزائريين "كشعب" بل يتم الحديث عن "قبائل" و "قراصنة" و "سكان". وقد رأينا كيف أن الكتب لم تشر أيضا إلى المصريين كشعب. ففى الحالتين يتم الحديث كما لو كان الفاعل العربى (المصرى أو الجزائرى) غير موجود. ويسهم هذا الوضع فى إعطاء شرعية لكل من الحدثين. وهذه سمة من سمات الخطاب الاستعمارى الفرنسى،كما ظهر من خلال تحليل كتب التاريخ المدرسية للمرحلة الابتدائية...

ثبت الكتب المدرسية الفرنسية المحللة فى الدراسة وعددها (92 كتابا)

- **كتب المســـتوى الأولىّ (Cours élémentaire):**

1- GUILLEMAIN et LE STER, *Histoire de France,* Ecole et Collège, 1945.

2- DUPREZ, *Histoire de France,* Albin Michel, 1946.

3- LECAT, LOCQUENEUX et PITON, *Histoire de France par l'image et le récit,* Delalain, 1946.

4- POMOT et BESSEIGE, *Petite Histoire du Peuple français,* Presses du Massif Central, 1947.

5- FLANDRE et MERLIER, *Histoire de France,* Gedalge, 1948.

6- BONNE, *Grandes figures et grands faits de l'Histoire de France,* Bibliothèque d'éducation, 1948.

7- GUILLEMAIN et LE STER, *Histoire de France,* Ecole et Collège, 1949.

8- TEISSIER et CHOUET, *Histoire de France,* Fernand Lanore, 1949.

9- AUDRIN, M. et L. DECHAPPE, *Notre France, son histoire*, Charles Lavauzelle, 1951.

10-SEGOND, *Histoire de France des Origines à nos jours,* Hatier, 1951.

11-MAUREL et EQUY, *Mon histoire de France en Images,* de Gigord, 1952.

12-TROUX, DE LABLANCHE et MANGEOT, *Histoire de France,* Hachette, 1952.

13-BONIFACIO et MERIEULT, *Histoire de France. Images et Récits*, Hachette, 1952.

14-PERSONNE, BALLOT et MARC, *Histoire de France,* Colin, 1952.

15-POMOT et BESSEIGE, *Petite Histoire du Peuple français,* Presses du Massif Central, 1953.

16-TROUX, DE LABLANCHE et MANGEOT, *Histoire de France,* Hachette, 1953.

17-BROSSOLETTE et OZOUF, *Mon Premier Livre d'Histoire de France*, Delagrave, 1953.

18-LAVISSE, *Histoire de France,* Colin, 1954.

19-DAVID, FERRÉ et POITEVIN, *Histoire*, Nathan, 1955.

20-GAUTROT-LACOURT et GOZÉ, *Premier Livre d'Histoire de France*, Bourrelier, 1955.

21-Une réunion de professeurs, *Histoire de France,* Ligel, 1955.

22-AYMARD, *Histoire de France,* Hachette, 1956.

23-ANNARUMMA et al, *Histoire de France,* Magnard, 1957.

24-BELOT, *Nouveaux Récits d'Histoire de France,* Istra, 1958.

25-CANAC et DUPAQUIER, *Couleurs de l'Histoire,* Didier, 1959.

26-OZOUF ET LETERRIER, *Belles Histoires de France,* Belin, 1961.

27-BONIFACIO et al, *Histoire de France,* Hachette, 1963.

28-PRADEL et VINCENT, *Histoire de France,* S.U.D.E.L., 1964.

29-GRIMAL et MOREAU, *Histoire de France,* Nathan, 1965.

30-M. et S. CHAULANGES, *Premières Images d'Histoire de France,* Delagrave, 1965.

31-GÉRON et ROSSIGNOL, *Belles Images d'Histoire,* Rossignol, 1965.

32-GAUTROT-LACOURT et GOZÉ, *Premier Livre d'Histoire de France,* Colin-Bourrelier, 1966.

33-M. et S. CHAULANGES, *Images et Récits d'Histoire de France,* Delagrave, 1967.

34-OZOUF et LETERRIER, *Images d'Histoire*, Belin, 1967.

35-BERNARD et REDON, *Notre Premier Livre d'Histoire,* Nathan, 1967.

36-GAUTROT-LACOURT et GOZÉ, *Premier Livre d'Histoire de France,* Colin-Bourrelier, 1967.

37-GRIMAL et MOREAU, *Histoire de France,* Nathan, 1967.

38-AUDRIN, M. et L. DECHAPPE, *Histoire de France. Images et Récits,* Charles Lavauzelle et Cie, 1968.

39-PERSONNE, BALLOT et MARC, *Nouveau Livre d'Histoire de France,* Colin, 1968.

40-M. et S. CHAULANGES, *Premières Images d'Histoire de France,* Delagrave, 1969.

41-AGEORGES et ANSCOMBRE, *Images et Récits d'Histoire*, M.D.I., 1969.

• كتب المستوى الأولى والمستوى المتوسط

(Cours élémentaire et cours moyen)

42-RUHLMANN et GARNIER, Histoire. De la Gaule à Nos Jours, Société d'éditions classiques de Lorraine et d'Alsace, 1947.

43-PLOTHIER et TRIAUD, Histoire de France, Les éditions scolaires, 1949.

44-BESSEIGE et LYONNET, Petite Histoire de France, Istra, 1950.

45-AYMARD, Histoire de France, Hachette, 1952.

• كتب المستوى المتوسط (Cours moyen)

46-LECAT, LOCQUENEUX et PITON, L'Histoire de France par l'Image et le Récit, Delalain, 1945.

47-LAVISSE, Histoire de France, Colin, 1946.

48-M. et S. CHAULANGES, Histoire de France, Delagrave, 1946.

49-BERNARD et REDON, Nouvelle Histoire de France et de la Civilisation Française, Nathan, 1946.

50-BILLEBAUT, Au Temps de .... Histoire de France, L'Ecole, 1947.

51-TROUX et GIRARD, Histoire de France, Hachette, 1947.

52-TROUX et GIRARD, Histoire de France, Hachette, 1949.

53-HALLYNCK, Éléments d'Histoire de France des Origines à nos jours, Masson et Cie, 1950.

54-M. et S. CHAULANGES, Histoire de France, Delagrave, 1950.

55-PERSONNE, BALLOT et MARC, Histoire de France, Colin, 1951.

56-ALBA et PAGES, Histoire sommaire de la France, Hachette, 1952.

57-OZOUF et LETERRIER, Histoire de France, Belin, 1952.

58-CLOZIER, DEPAIN et GUYOMARD, Histoire de France, Larousse, 1953.

59-AUDRIN, M. et L. DECHAPPE, Notre France, son Histoire, Charles Lavauzelle, 1954.

60-LE TERRIER et OZOUF, Notre Livre d'Histoire, Belin, 1955.

61-DAVID, FERRÉ et POITEVIN, Histoire, Nathan, 1956.

62-BONNE, Notre Histoire, S.U.D.E.L., 1957.

63-GRIMAL et MOREAU, Histoire de France, Nathan, 1960.

64-M. et S. CHAULANGES, Histoire de France, Delagrave, 1963.

65-FLANDRE et MERLIER, Histoire de France, Belin, 1963.

66-BONIFACIO et MARÉCHAL, Histoire de France, Hachette, 1964.

67-BILLEBAUT, Histoire de France et des Français, L'Ecole, 1964.

68-PERSONNE, BALLOT et MARC, Nouveau Livre d'Histoire de France, Colin, 1966.

69-M. et S. CHAULANGES, Histoire de France, Delagrave, 1966.
70-PLANDÉ, M. et L. DECHAPPE, Histoire, Charles Lavauzelle, 1966.
71-ANSCOMBRE, Je comprends et j'aime l'Histoire, M.D.I., 1969.

• كتب المستوى المتوسط والمستوى العالى

(Cours moyen et cours supérieur)

72-AYMARD, Histoire de France, Hachette, 1948.
73-BONIFACIO et MARÉCHAL, Histoire, Hachette, 1961.
74-BARON, Histoire de France, Magnard, 1963.

• كتب الصف النهائى للدراسات الابتدائية

(Classe de fin d'études primaires)

75-ROPS, Notre Histoire (Tome 1), Didier, 1946.
76-ROPS, Notre Histoire (Tome 2), Didier, 1946.
77-BERNARD et REDON, Le Livre Unique d'Histoire, Nathan, 1948.
78-GUILLERMIT et LE STER, Histoire de France, L'Ecole, 1948.
79-TROUX et GIRARD, Histoire de France, Hachette, 1948.
80-POMOT et BESSEIGE, Petite Histoire du Peuple français, Presses du Massif Central, 1949.
81-M. et S. CHAULANGES, Histoire de la Civilisation, Delagrave, 1950.
82-ROPS, Notre Histoire (Tome 1), Didier, 1950.
83-ROPS, Notre Histoire (Tome 2), Didier, 1951.
84-ARNOULD et MATHIEU, A la Découverte des Choses et des Gens d'Autrefois, Alsatia, 1951.
85-CLOZIER, DEPAIN et GUYOMARD, La France dans l'Histoire de la Civilisation, Larousse, 1954.
86-Une réunion de professeurs, Toute Notre Histoire, Ligel, 1955.

87-AUDRIN, M. et L. DECHAPPE, De l'Antiquité à la France d'aujourd'hui, Charles Lavauzelle, 1958.

88-PRADEL et VINCET, Histoire, S.U.D.E.L., 1961.

89-LAVISSE, Histoire de France, Colin, 1963.

90-AUDRIN, M. et L. DECHAPPE, De l'Antiquité à la France d'aujourd'hui, Charles Lavauzelle, 1964.

91-PERSONNE, BALLOT et MARC, Histoire de France et Initiation à l'Histoire de la Civilisation, Colin, 1965.

92-M. et S. CHAULANGES, L'Histoire vivante des Peuples de l'Antiquité aux Français d'aujourd'hui, Delagrave, 1967.

obeikan.com

الهوامش

1. كانت الكتب المدرسية للمرحلة الابتدائية بفرنسا، والمقررة فى الفترة ما بين 1945 و1969، هى المادة التى تم تحليل مضمونها، وذلك فى إطار دراسة موضوع رسالة الدكتوراه للباحثة. وكان عنوان الرسالة هو:

La Représentation de l'Orient arabe dans le discours historique français: 1945-1969 (les manuels scolaires du cycle primaire), Faculté des Lettres, Université du Caire, 1997.

(*) المدرس بقسم اللغة الفرنسية وآدابها – كلية الآداب – جامعة القاهرة.

2. الترجمة الحرفية لاسم المادة هى: "المواد التعليمية المختصة بالتيقظ"؛ أى التى تعطى التلميذ معلومات أولية تشد بها انتباهه بصورة مبسطة.

3. تتكون عينة الكتب المدرسية المحللة هنا من 92 كتابا. وتتعدد دور النشر التى أصدرت هذه الكتب بحيث يصل عددها إلى 27 دور نشر (انظر القائمة المرفقة بالبحث). وقد تم اختيار هذه الكتب بناء على معيارين أساسيين: 1- أهمية دار النشر، مما يعد مؤشرا على مدى انتشار استخدام كتاب مدرسى بعينه، 2- إمكانية الاطلاع على الكتاب.

4. هى الحكومة التى أدارت شئون الحكم فى فرنسا فى الفترة ما بين 1795 و 1799.

5. تنقسم المرحلة الابتدائية إلى ثلاثة مستويات: cours élémentaire (CE) وهو المستوى الأولى (لمدة عامين) ثم cours moyen (CM)، وهو المستوى المتوسط (لمدة عامين آخرين)، وأخيرا classe de fin d'études primaires (CEP)وهو الصف النهائى للدراسات الابتدائية.

6. BELOT, Nouveaux Récits d'Histoire de France, CE, Istra, 1958, p. 78.

7. Une réunion de professeurs, Toute Notre Histoire, CEP, Figel, 1955, p. 260.

8. TROUX, DE LABLANCHE et MANGEOT, Histoire de France, CE, Hachette, 1952, p. 50.

(*) يوظف الخطاب صيغة الـ"نحن" ليتم خلق شعور واحد لدى مرسلى ومتلقى هذا الخطاب وتوحدهم مع الجيش الفرنسى. ومن خلال هذا التوظيف، يتم استيعاب المتلقين – أى التلاميذ – للخطاب، ويحدث نوع من التماثل أو التطابق مع شخصيات المشهد التاريخى أو الفاعلين الفرنسيين فى الحدث المقدم.

9. CLOZIER et DEPAIN, Histoire de France, CM, Larousse, 1957, p. 128.
10. BILLEBAUT, Histoire de la France et des Français, CM, L'Ecole, 1964, p. 91.
11. Une réunion de professeurs, op.cit., p. 261.
12. LAVISSE, Histoire de France, CEP, Colin, 1963, p.241.
13. CANAC et DUPAQUIER, Couleurs de l'Histoire, CE, Didier, 1959, p.35.
14. GRIMAL et MOREAU, Histoire de France, CM, Nathan, 1960, p. 91.
15. GUILLEMAIN et LE STER, Histoire de France, CE, Ecole et Collège, 1938, p. 173.
16. CANAC et DUPAQUIER, op.cit., p. 35.
17. M. et S. CHAULANGES, Histoire de France, CM, Delagrave, 1950, p. 151.
18. نذكر في هذا الصدد على سبيل المثال لا الحصر الكتب المدرسية التالية:

- LECAT, LOCQUENEUX et PITON, *Histoire de France par l'image et le récit,* CE, 1946.
- M. et S. CHAULANGES, *Histoire de France,* CM, 1950.
- ROPS, *Notre Histoire,* Tome 2, CEP, 1951.

19. M. et S. CHAULANGES, *Histoire de France*, op.cit., p. 158.

❊ ❊ ❊